من عيون الأدب الغربي:

محاورات خياليـــة

لولتر سافيج لاندور

للاســـتاذ بولس سلامة

— ٣ —

الخصوم النبلاء

تمهيد :

[كانت رومة وقرطجنة في كفاح دام سير حول السيادة على البحر ، هذا البحر الذي يفصل بين قارتين ويصل بينهما والذي كان ولما يزل موضع النزاع بين الدول الكبرى حتى حربنا هذه . ذلك أن الذي يسود هذا البحر يسود البر والبحر معاً . وكان هينبال ومرسيل قائدي الجيشين المتحاربين

وفي هذا المقال من مقالات (لاندور) نرى مرسيل وقد خر صريعاً في الميدان ووقف بجانبه خصمه هينبال يريد أن يبتهج بالنصر ولا يستطيع . ثم نسمع هذا الحوار الجميل بين القائدين أحدهما جريح مقهور والآخر ظافر منصور

تأمل هذه الصورة الرائعة ثم الق نظرة على ما يجري حولنا الآن من محاكمات ثم قارن بين الحالين واسأل نفسك كما سألت نفسي : هل تقدمت الانسانية أو تقهقرت في مدى هذه القرون الطوال] .

(مارسيل القائد الروماني ملقى على الأرض أمام هينبال)

هينبال : هلا أجد فارساً نومادياً سريعاً ! مرسيل مرسيل . إنه لا يبدي حراكا . أظنه قد مات . ألم يحرك إصبعه ! أيها الجند تنحوا . دعوه يستنشق شيئاً من الهواء . اعطوه قليلا من الماء . اجمعوا هذه الأوراق والأعشاب وضعوها تحت رأسه . اخلعوا شكته ، وارفعوا عنه خوذته . هاهوذا يتنفس . يخيل إلي أنه فتح عينيه ثم أغمضهما . ولكن من الذي لمس كتفي (يلتفت وراءه) هذا فرس مارسيل . لا يعتليه من بعده أحد . إيه حتى هؤلاء الرومان بدأوا يتذوقون النعيم . ما هذه الحلى الذهبية (مشيراً إلى الفرس) .

قائد غالي[1] : يا لَلَّعص . إن هذه السلاسل كانت قلادة مليكنا . لقد انتقمت منه الآلهة .

هينبال : سوف نتكلم عن الانتقام بين أسوار روما . ابحث عن الطبيب الآن فالسهم يجب أن ينزع مهما كان عميقاً . أرسلوا السفن إلى قرطجنة وقولوا لها إن هينبال على أبواب رومة وإن قاهر سيراقوسة قد وقع مقهوراً . لقد سقط مارسيل الذي كان يحول بيني وبين روما . (مخاطباً مرسيل) أيها الرجل الشجاع . إني أود أن أبتهج ولكني لا أستطيع . هذا المحيا أي جلال فيه ! وهذا القوام أي عظمة تحتويه ! إنها لعظمة أولئك الذين سمعنا عنهم في أرض النعيم . أولئك الذين جاهدوا وخروا على الأرض المضمخة بدمائهم ثم تأمل : ما أبسط سلاحه وعدته !

قائد غالي : لقد قتله أصحابي . بل أغلب الظن أني قاتله . إن هذه السلاسل الذهبية وقد كانت لمليكي يجب أن تكون من نصيبي . إن شرف بلادي يقضي أن لا يأخذها غيري .

هينبال : يا صاحبي إن عظمة مرسيل كانت في غنى عن هذه السلاسل ، فلما قتل مليككم لم يحتفظ بها لنفسه ولا للآلهة ولكنه وضعها على فرسه .

قائد غالي : اسمع لي يا هينبال .

هينبال : ماذا تقول ؟ أفي هذه اللحظة التي يرقد فيها مرسيل أمامي مثخناً بالجراح وهو بين الحياة والموت ، أفي هذه اللحظة التي قد تعود فيها حياته إليه فيساق في موكب النصر إلى قرطجنة ، أفي الوقت الذي تنتظر فيه إيطاليا وصقلية واليونان تلبية أوامري ، أفي هذا الوقت تسألني أن أستمع لك ؟ ولكن هوّن عليك ! سوف أعطيك سرجي هذا المرصع بالجواهر ، وهو أثمن من هذه السلاسل عشر مرات .

قائد غالي : لي أنا !

هينبال : نعم لك أنت .

قائد غالي : وهذه الجواهر ؟

هينبال : نعم .

قائد غالي : إيه هينبال الذي لا يقهر ، وما أسعدك يا بلادي بهذا الحلف العظيم ! إني مدين لك بالشكر ، بالحب ، بالولاء إلى الأبد .

هينبال : نحن عادة نحدد الوقت في المحالفات . عد الآن

(١) نسبة إلى بلاد الغال (فرنسا) .

إلى مركزك . إنى أريد أن أرى الطبيب وأعرف رأيه ، حياة مرسيل ، انتصار هينبال . وماذا فى العيش بعد ذلك . رومة ، وقرطجنة ، ولا شيء .

مرسيل : أموت الآن ، للآلهة الحمد . فالقائد الرومانى لا يؤخذ أسيراً .

هينبال : (للطبيب) ألا يقوى على السفر بحراً . انزع منه السهم .

الطبيب : إذا نزعته قضى نحبه .

مرسيل : إنه يؤلمنى ، انزعه .

هينبال : يا مرسيل إنى لا ألم ظلا للألم فى محياك . وإنى أكره أن أتعجل منيتك وأنت خصمى فى يدى . وما دام شقاؤك عسيراً فأنت — كما تقول — لست أسيراً .

هينبال : (للطبيب) أليس لديك ما يخفف هذا الألم الذى يعضه وإن كان يخفيه ؟

مرسيل : يا هينبال أعطنى يدك . لقد حببتنى بعطفك ، وآسيت جرحى بلطفك . (للطبيب) اذهب يا صاحبى فهناك كثيرون محتاجون إليك ؛ كثيرون وقعوا بجانبى .

هينبال : يا مرسيل هل لك أن توصى بلادك بالصلح وتخبر مجلس الشيوخ بتفوق قواتى التى لا تجدى معها المقاومة . اللوح معد ، وهذا ختمك دعنى أنزعه من يدك لتختم . كم يسرنى أن أراك تستطيع أن تتكىء قليلا وتبسم

مرسيل : بعد ساعة أو بضع ساعة سوف تلقانى الآلهة غاضبة وهى تقول يا مرسيل : هذه كتابتك . لقد فقدت رومة رجلا فقدت مثله رجالا من قبل ؛ ولكن لما يزل فى رومة رجال .

هينبال : ماذا تقول ؟ أتخشى الكذب ؟ إنه ليخجلنى أن أعترف لك بأن رجالى متوحشون والمراكز القريبة يقوم عليها غاليون موتورون ، والنومادون ليسوا بأقل وحشية . وإنى لا أستطيع البقاء بجوارك إذ أحتاج أن أكون بعيداً ، وأخشى أن ينالك سوء فى غيابى إذا علم هؤلاء أنك أبيت أن تنصح بلادك بالصلح فنمتهم العودة إلى بلادهم التى طال عنها غيابهم .

مرسيل : يا هينبال أنت لا تجود بأنفاسك كما أجود .

هينبال : ماذا تعنى !

مرسيل : أعنى أنك تخشى أشياء كثيرة ولكننى لم أعد أخشى شيئاً . إن قسوة جنودك لا تضيرنى وجنودى لا يكونون علىّ قساة . إن هينبال تبعده مهام عمله فتبتعد فى أثر جوادد سلطته ، وعلى هذه الحشائش بقايا قائد مجروح ولكن لا يزال هو روح الجيش وقوته . أتستطيع أن تتنازل عن سلطان منحته لك بلادك ؟ أوتستطيع أن تقول إنك بأخطائك قد جعلته دون سلطان خصمك ؟ لقد تكلمت كثيراً . دعونى أستريح . إن هذه العباءة تضايقنى .

هنيبال : لقد وضعتها على رأسك لتقيك الشمس لما خلعوا عنك خوذتك . دعنى الآن أضعها تحت رأسك وأن أعيد هذا الخاتم إلى إصبعك .

مرسيل : بل خذه لك . لقد أعطتنيه امرأة لاجئة فى سيراقوسة غطته بخصلة من شعرها وقالت لى خذه هبة منى فهو كل ما أملك . ولم يخطر ببالى يومذاك ان سيأتى على يوم يكون فيه حالها حالى ومقالها مقالى . ما أعجب القدر ! فى لحظة تتحول مصائر البشر ! خذه يا هينبال ، وليكن وهذه العباءة التى وسدتنيها هدايا ضيفين يفترقان . قد يأتى يوم تجلس فيه تحت سقف بيتى ظافراً أو غير ظافر فتجد هذه الهدايا ذات نفع فى شدتك قد يذكر أبنائى أن فوق هذه العباءة جاد أبوهم بأنفاسه فيكافئونك على جميلك ؛ وفى رخائك قد يسرك أن تحميهم غوائل الدهر ، وهى أقرب ما تكون إلى الإنسان حين يظن أنه بنجوى منها ، ولكن هناك شيء واحد .

هينبال : ماذا ؟

مرسيل : هذا الجسم .

هينبال : أين تريد أن تحمل ؟ الرجال معدُّون .

مرسيل : لست أعنى هذا . قوتى تزايلنى ، ويخيل لى أنى أسمع ما بداخلى ولا أسمع ما حولى . نظرى وحواسى تضطرب . أريد أن أقول إن هذا الجثمان بعد أن تفارقه روحى لا يستحق اهتمام أحد ، ولكن نبلك يأبى عليك أن تضن به على أهلى حناناً وعطفاً .

هينبال : هل عندك شيء آخر تسأله ، فإنى أحس رغبة مكبوتة فيك .

مرسيل : الواجب والموت يذكراننا بالوطن أحيانا .

هينبال : أجل فإلى الوطن تتجه أفكار المنصورين والمقهورين على السواء .

مرسيل : هل عندك أسرى من حرسى .